الفصل السابع

أشـــجار البلوط والتربنتين المقدسة

احتلت شجرة البلوط وشـــجرة التربنتين المكان الأول بين الأشجار المقدسة عند العبريين القدماء ، وكلا النوعين ما زال ينمو فى فلسطين • وتختلف الشجرتان عن بعضهما البعض من حيث النوع اختلافا كبيرا ، ولكنهما فى الوقت نفسه تتشابهان تشابها كبيرا من حيث الشـــكل • ولهذا فانه يبدو أن العبريين القدماء كانوا يخلطون بينهما ، أو أنهم على الأقل ، كانوا يضعونهما تحت صنف واحد ، ويسمونهما بأسماء مختلفة • ومن ثم فانه ليس من اليســـير دائما معرفة ما اذا كانت الاشارة فى عبارات بعينها فى العهد القديم الى شجرة البلوط أو الى شجرة التربنتين •

ولا تزال تنبت فى فلسطين حتى اليوم ثلاثة أنواع من البلوط • وأكثر هذه الأنواع وفرة ، ذلك النوع الشـــوكى الدائم الاخضرار (Quercus Pseudo-coccifera) • ويشـــبه هـــذا النوع فى شـــكله العام وفى لون أوراقه ، أشجار البلوط التى تنمو فى الجزر فى بلادنا تشابها تاما ، فيما عدا أن أوراق شجر البلوط الفلسطينى من النوع الشائك • كما أنها تختلف فى شكلها عن أوراق أشجارنا كل الاختلاف ؛ فهى أكثر شبها بأوراق البهشمية (١) • ويسمى الأهالى هذا النـــوع اسم سنديان ، أما اسم البلوط فتطلق على الصنف نفسه بكافة أنواعه• وهذا النوع الشائك الدائم الاخضرار من البلوط « هو الى حد كبير أكثر الأنواع وفرة فى الشـــام ، وهو يغطى التلال الجبلية بخاصة فى

---

(١) نبات ذو ورق صقيل شائك الأطراف ، وزهر صغير ضـــارب الى البياض •

فلسطين فى شكل غابات كثيفة من الأشجار التى يبلغ ارتفاع كل منها من ثمانية أقدام الى اثنى عشر قدما والتى تأخذ فى التفرع من أسفل وتكسوها فى وفرة أوراق صغيرة صلبة دائمة الاخضرار ، كما ينتشر جوز البلوط فيه بوفرة • ويكون هذا النوع تسعة أعشار نباتات جبل « الكرمل » ، كما أنه ينمو بمثل هذه الوفرة على وجه التقريب على الكشوح الغربية فى الجبل الشرقى بلبنان . كما ينتشر فى كثير من منحدراتها ووديانها • بل ان جذوره تعيش فى باطن الأرض فى الأماكن التى اختفت فيها الأشجار ، ويقوم الناس بانتزاعها من باطن الأرض ، واستخدامها فى الوقود ، كما يفعل سكان الوديان التى تقع جنوب بيت لحم • ونادرا ما تنمو غابات البلوط فى سوريا فى حجمها الكامل ، نظرا لأن السوريين يقومون باجتثاث الغابات فى غير قيد » ••

والنوع الثانى من غابات البلوط التى تنمو فى فلسطين هو الذى يسمى ببلوط فالونيا Guercus aegilops • وهذا النوع يغير أوراقه فى مواسم معينة ويشبه الى حد كبير أشجار بلوطنا الانجليزى من حيث نموه وشكله العام . ومن حيث خلو غاباته من الأحراش والأدغال • وانما تعلو أشجاره فوق ساق قوية كثيرة العقد الى مسافة تبلغ من عشرين الى ثلاثين قدما . كما يبلغ قطرها من ثلاثة الى سبعة أقدام • وأوراق هذه الأشجار كثيفة . كما أنها تبدو فى منظرها الطبيعى أشبه بالحديقة لأنها تنمو فى الغالب فى فضاء الغابة المفتوح • ويندر وجود هذا النوع من الأشجار فى الجنوب فى حين يكثر فى الشمال • وبينما تنمو هذه الأشجار متفرقة فوق جبل « الكرمل » ، فهى تكثر فوق جبل تابور ، وتتكاثف فى شكل غابة فى شمال هذا الجبل • وفى مدينة « باشان » يتوافر نوع البلوط ذو الأوراق الشائكة الدائمة الاخضرار • وهى تلك التى يتحدث عنها الأنبياء العبريون بدون شك بوصفها نموذجا للكبرياء والقوة • ذلك لأن شجرة البلوط فى هذا المكان ذات حجم سحرى ، بخاصة تلك التى تنمو فى الوديان المنخفضة • ويأكل الأهالى ثمارها الكبيرة ، بينما يستخدم الصباغون

جوزتهـا فى أصـباغهم ، ويسمونها فالونيا وهى تصـدر على نطاق واسـع .

وأما النوع الثالث من أشجار البلوط التى تنمـو فى فلسـطين فهو الذى يسمى باللغة اللاتينية (Quercus infectoria) ؟ ، وهـذا النوع يغير أوراقه ذات اللون الأبيض من أسفلها ، فى مواسم معينة . وليس هذا النوع مألوفا مثل النوعين السابقين ، ولكنه ينمو على جبل الكرمل كما ينمو بوفرة بالقرب من « قادش » وهى مدينة « قادش نفتانى » القديمة . وتبدو هذه الأشجار رائعة نظرا لوفرة نسيجهـا النباتى ، ولونها الأحمر الداكن ولمعان سطحها اللزج . ولم ير « كانون تريسترام » أشجار ضخمة من هذا النوع فى أى مكان ، كما أنه لم ير منه شيئا فى جنوب السامرة .

وما زال الفلاحون ينظرون الى أشـجار البلوط التى تنمو بوفرة فى جهات كثيرة فى فلسطين نظرة تقديس أساسه التصورات الخرافية . فقد ذكر « طومسون » فى معـرض حديثه عن أيكة البلوط الجميلـة التى تقع بالقرب من بحيرة الحولة « فيالا » فى شـمال فلسـطين ، فقال : « ان هذه الأشجار التى نجلس تحتها الآن ، يعتقد الناس فى أنها مأوى للجن والأرواح . فكل قرية من قرى هذه الأودية على وجه التقريب أو تلك التى تقع على الجبال ، تنبت فيها شجرة بلوط ضخمة أو أكثر من شجرة يقدسها الناس بناء على هذه الفكرة الخـرافية . ويعتقد الأهالى أن كثيرا من الأشجار فى هـذه المنطقة يسكنها أشباح بعينها يطلق عليها اسم « بنات يعقوب » ، وهى تسمية غريبة ومبهمة لم أتمكن من أن أجد لها تفسيرا مقنعا . ويبدو أن هذه التسمية تشير الى بقايا عبادة الأوثان القديمة التى قضى عليها القانون الاسـلامى شكلا ، ولكنه لم يتمكن من محوها كلية من نفوس الناس . فقد استسلم المسلمون بحق لمثل هذه الخرافات ، شأنهم شأن أى طبقة أخـرى فى المجتمع . وترتبط بـدون شك بهذا التصور عند المسلمين ، عادة دفن أوليائهم والأدعياء من الأنبياء عند هذه الأشجار حيث يشيدون لهـم

أضرحة أو مزارات . فجميع الطوائف غير المسيحية تعتقد فى أن أرواح الأولياء ترغب فى العودة الى الارض لتزور بصفة خاصة أماكن قبورها » .

وفى قرية « بلودان » الرومانسية التى يلجأ اليها سكان دمشق هروبا من حر الصيف ، توجد « آثار معبد بعل القديم . وما زال الفلاحون ينظرون الى أيكة البلوط العتيقة التى تنمو على السفح أسفل هذا المعبد نظرة تقديس خرافى » . « ففى وادى » « بردى » بالقرب من دمشق ، حيث ما تزال بعض الطقوس الوثنية تنتشر بين المسلمين ، قمت بزيارة أيكتين من أشجار البلوط من النوع الدائم الاخضرار . وهاتان الأيكتان يتخذهما الفلاحون أمكنة يتوسلون عندها لأوليائهم . فاذا ما تحققت لهم رغبة كانوا قد سبقوا أن نذروا نذرا عند تحقيقها ، فانهم يذهبون الى احدى الأيكتين فى يوم معين من أيام السنة ، ويكسرون جرة هناك ، أو أنهم يضعون آنية جديدة فى كهف صغير يقع أسفل صخرة فى احدى الأيكات . وقد نظرت فى هذا الكهف ورأيته ممتلئا حتى مدخله بالأوانى المختلفة التى قدمها الناس لهذا المكان المقدس . وأما فى الأيكة الأخرى ، فأنت ترى هناك أكواما هائلة من كسر الجرار » . وهناك أيكة أخرى مقدسة من أشجار البلوط تقع عند « باينو » فى شمال سوريا ، حيث توجد بين أشجارها آثار كنيسة يونانية . وقد علمنا أن الناس يقدسون شجرة بلوط ضخمة عتيقة تنمو فى قرية تركية فى شمال سوريا ، فعند هذه الشجرة يحرق الناس البخور ويقدمون النذور ، تماما كما يفعلون عند بعض الأضرحة . وليس هناك فى المناطق المجاورة لهذه الشجرة قبر لأحد الأولياء ، ولكن الناس يقدسون الشجرة نفسها ».

وفى كثير من الأحيان تنمو أشجار البلوط المقدسة منفردة أو فى شكل أيكة بالقرب من جامع ذى مئذنة بيضاء أو بجوار أضرحة أولياء الله المسلمين التى يمكن للمسافر أن يراها من أحد أطراف سوريا الى الطرف الآخر منها . وكثير من هذه المآذن البيضاء والأيكات

المخضرة يتوج قمم التلال • ومع ذلك فليس هناك من أحد يعرف متى أصبحت هذه الأشجار أضرحة مقدسة ، ومن الذى خلع عليها هذه القدسية ، وما سبب قدسيتها • وكثير من هذه الأشجار قد كرس لتقديس البطارقة والأنبياء ؛ والقليل منها خصص لتقديس المسيح ورسله • كما أن بعضها يحمل أسماء أبطال شعبيين ، وبعضها الآخر يرتبط بأشخاص أو بأمكنة وحوادث ذات أهمية محلية • ومن المحتمل أن تقديس الكثير من هذه الأمكنة ذات المكانة السامية يرجع الى عصور سحيقة • وعلى الرغم من تعاقب الممالك والديانات على هذه الأمكنة ، فقد ظلت كما هى حتى اليوم ، ومما يؤكد هذا أن بعض هذه الأمكنة يتردد المسلمون سكان الصحراء ، وطائفة المتاولة (١) والدرزية ، وكذلك المسيحيون واليهود • ومن ثم فاننا لا نجد فقط فى هذه « الأماكن ذات المنزلة السامية » ، وتحت كل شجرة خضراء تنمو على الجبال العالية وفوق التلال ، آثارا ترجع الى زمن بالغ فى القدم وتشير الى معتقدات الانسان القديم ، وانما نجد أيضا مبانى حديثة ذات قباب تبرز وسط تلك الأيكات • واذا لم يكن كل هذا كفيلا بأن يجعلنا نشعر بقدسية هذه الأمكنة ، فانه يدفعنا لأن نتساءل عنها فى الحاح • فأحد هذه الأماكن المقدسة يقع فوق قمة جبل من جبال لبنان شرق قرية « جيزين » ؛ محاطا بأشجار البلوط المقدسة ، وقمة هذا الجبل ذات شكل بيضاوى ؛ وتحيط بها الأشجار المخضرة على الدوام » •

وقد كتب كاتب آخر كثيرا ما تجول فى الأرض المقدسة حول تأثير هذه الأماكن ، فقال : « ان المسافر فى فلسطين كثيرا ما يقع بصره على مجموعات الأشجار التى تحيط بقبة بيضاء ، هى عبارة عن مبنى منخفض من الأحجار يبرز من بين الأوراق ذات اللون الأخضر الداكن • فاذا تساءل المسافر عن هذا البناء ، قيل له انه لولى من الأولياء أو قديس من القديسين ، وهو يعنى أن بداخل هذا البناء قبر ولى أو

(١) هم الشيعة الجعفرية .

قديس ذائع الصيت • وتقع هذه الأبنية عادة ، وان كان هذا لا يحدث على الدوام ، فوق قمم التلال • ويمكن رؤيتها من حول هذه التلال من كل مكان على بعد عدة أميال • وبعضها يعد معلما للبلد فيراه المسافر من على بعد مسافة كبيرة • فاذا سألت عن هؤلاء الأولياء فانك تجد ان الكثير من معالم حياتهم قد ضاع فى مجاهل التاريخ • والحقيقة أن التفسير الحقيقى لقدسية هذه الأمكنة ، هى أنها كانت فى العصور القديمة أماكن شيدت عندها معابد الكنعانيين • ولم يكن الاسرائيليون قد خربوا كل تلك الأماكن المقدسة عندما استولوا على الأرض المقدسة كما نعلم من نصوص كثيرة فى العهد القديم ، ولكنها أصبحت فيما بعد السبب فيما نسب اليهم من آثام • وفى العادة تنمو حول قبة الولى أكمة تنتشر فيها بصفة خاصة أشجار البلوط ، ويبدو ان هذه الأشجار بعينها هى التى كانت تنمو فى هذه الأمكنة أيام العبريين القدماء وبصفة خاصة على التلال • والى جانب أشجار البلوط التى تكون عادة من النوع الدائم الاخضرار ، لا من النوع الذى يغير أوراقه على نحو ما يحدث فى غاباتنا الانجليزية ، تنمو أشجار التربنتين وأشجار الطرفاء والسدر أو البنك Zizyphus – spina Chrisri وأحيانا يسميها الأوربيون Do'm ، وغير ذلك من الأشجار التى تنمو جنبا الى جنب مع الأشجار • وفى بعض الأحيان ينمو فى هذا المكان شجرة واحدة يقبع فى ظلها قبر الولى • ويتكون الضريح نفسه من بناء حجرى بسيط ليست له نوافذ فى أغلب الأحيان ، وبداخله محراب • ويراعى ترميم هذا الضريح على الدوام . كما أنه يطلى بين الحين والآخر من الداخل والخارج بالطلاء الأبيض • وفى بعض الأحيان يوجد القبر داخل البناء تحت القباب ، وهو عبارة عن مبنى قبيح من الحجر مشيد فوق القبر ، ويبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثة أقدام • وفى كثير من الأحيان يكون ارتفاعه غير عادى ، مثل قبر « يوشع » • الذى يقع بالقرب من السلط شرق الأردن . اذ يبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثين قدما » •

وكذلك كتب الكابتن « كوندر » فى معـرض حـديثه عن الديانة الفعلية لا الاسمية للمزارعين السوريين فى أيامنا هذه فقال : « ان الدين المعترف به فى هذا البلد هو الاسـلام • ومبادىء هذا الدين بسيطة ؛ فهى تتلخص فى الايمان بآله واحد ورسول واحد • ومـع ذلك فقد يعيش الانسان شهورا فى جهات نائية فى فلسطين دون أن يبصر أو أن يسمع مؤذنا يؤذن للصـلاة • ولا يعنى هذا ان الناس لا يعيشون حياتهم بدون دين يشـكل سلوكهم اليومى ، ففى كل قرية على وجه التقريب يشاهد بناء صـغير تعلوه قبة بيضـاء ، وهـذا البناء يعد المـكان المقدس فى القرية الذى تطلق عليه أسماء مختلفة ، فهو يسـمى قبـة ، ومزارا ، ومقاما • والكلمة الأخيرة عبرية وقد استخدمت فى الكتاب المقدس اشارة الى أماكن الكنعانيين المقدسـة التى أمر بنو اسرائيل بتخريبها • وتقع هذه الأضرحة فوق قمم الجبال العالية ، وفوق التلال وتحت كل شـجرة خضراء • فالمـكان الذى يختار لاقامة المقام هو بعينه الذى يقع عليه الاختيار فى عهد موسى لاقامة المعابد ، وهو يراعى فيه أن يكون بارزا ؛ ففوق قمة الجبل أو عند حافته تسطع قبة صغيرة فى ضوء الشمس وقد انتشرت فوقهـا فروع شجرة من أشجار البلوط أو من أشجار التربنتين • وبجانب أشجار النخيل المنعزلة أو وسط أشجار اللوتس العتيقة التى تنبت عند نبع ؛ تشرف شجرة على بناء منخفض يقف منعزلا أو محاطا بالقبور المنخفضة فى الجبانة الصغيرة • وينظر الى الأشجار التى تنبت بجوار المقام نظرة تقديس على الدوام ، بل انه يحتفظ بالفروع التى تسقط منها داخل هذا البناء المقدس •

وتختلف شـكل الأضرحة حسـب درجة أهميتها ، فهى فى بعض الأحيان تكون مجرد أرض جرداء يحيط بها سور من الأحجار ، كما هو الحال فى ضريح النبى « جبرين » • وفى بعض الأحيان يـكون الضريح بناء معماريا فخما تزينه النقوش وأحجار الزينة كما هو الحال فى مسجد أبى هريرة (أحد صحابة النبى) الذى يقـع بالقرب مـن

« يبنة » • ولكن المقام يكون فى العادة بناء ذا طابع حديث ويبلغ محيطه حوالى عشرة أقدام وتعلوه قبة دائرية مطلية بالطلاء الأبيض الناصع ، وبداخله محراب يقع عند الحائط الجنوبى • وتزين الحوائط التى تحيط بالباب كما تزين العتبة الحجرية بالصور الزيتية ، وقد تطلى بطلاء برتقالى يشبه لون الحناء • كما يوضع الى جانب العتبة ابريق ممتلىء بالماء ليشرب منه زوار الضريح • وفى العادة يوجد داخل المقام قبر صغير تتجه رأس ساكنه الى جهة الغرب ، ويتجه جسده الذى يوضع مستقليا على جانبه الأيسر ، كما هو المألوف ، جهة مكة • وفى بعض الأحيان تغطى أرض الضريح بالحصر ، كما يحتفظ داخل المقام فى الغالب بمحراث أو بأى شىء آخر ذى قيمة ؛ حيث يظل فى مأمن من أيدى أكثر اللصوص جرأة حيث لا يجرؤ لص على أن يسىء الى الولى الذى يجد الناس فى ضريحه مكانا أمينا يحتفظون فيه ببعض ممتلكاتهم •

ويجسد هذا المقام العقيدة الحقيقية للمزارعين ، فهو مقدس قدسية المكان الذى أقام عنده الولى ذات مرة وفقا لتصور الناس (ومن ثم فقد سمى مقاما نسبة الى اقامة الولى فى هذا المكان) • أو أنه مقدس لارتباطه بحادثة تتصل بتاريخ الولى • وهذا الضريح ينظر اليه على أنه المركز الذى يشع منه تأثير هذا الولى • فاذا كان الولى ذا مكانة روحية عالية فان تأثيره قد يمتد الى مسافة عشرين ميلا من حوله • واذا كان الولى سمح النفس ، فانه يمنح السعادة والصحة لزائريه وغير ذلك من البركات • أما اذا كان غاضبا من الناس ، فانه يحل عليهم لعناته ، كأن يصيب بعض أفرادهم بالجنون أو ينزل بهم الموت • فاذا أحس الناس بتصرف غريب فى سلوك أحدهم فانهم يقولون : « لقد أصابه الشيخ بالأذى » • كما يقال أنه أفضل للمجرم أن يقر بجريمة القتل التى ارتكبها وبذلك ينقذ نفسه ، من أن يقسم كذبا عند ضريح شيخ له مكانته بأنه لم يرتكب هذا الجرم ، لأنه ان فعل هذا فان وسطاء الولى الروحانيين يقتلونه حتما •

« وليست طريقة تقديس المقام معقدة • فعند هذا الضريح يسكن حارس على الدوام • وقد يكون هذا الحارس شيخا من بين الأهالى ، وقد يكون أكبر الرجال سنا فى القرية ، وفى بعض الأحيان يكون درويشا يسكن بالقرب من الضريح • كما يسكن عند المكان المقدس شخص يقوم بملء الماء وبنظافة المكان • ويتركز التقديس حول الضريح نفسه ، حيث يسكن الولى فى صورة غير مرئية كما يتوهم الناس • فاذا دخل المواطن الضريح ، خلع حذاءه عند العتبة ، ويأخذ حذره على ألا تمس قدماه عتبة الضريح ، كما عليه أن يحذر القيام بأية حركة من شأنها أن تسىء الى القوى الالهية التى تسكن هذا المكان • فاذا انتشر وباء فى القرية تقدم النذور الى المقام • وكثيرا ما رأيت زوجات فقيرات أو أمهات قد مرض أزواجهن أو أطفالهن يزرن الضريح ، وقد أحضرن معهن مصباحا زيتيا يضعنه أمام الضريح ويوقدنه • ويوفى نذر الولى عن طريق تقديم ضحية يطلق عليها اسم « كود » أو العوض ، فتذبح شاة قريبا من المقام ويؤكل لحمها فى وليمة تبركا بالشيخ » •

ولا تستخدم الفروع التى تسقط من الأشجار المقدسة سواء كانت أشجار البلوط أو التربنتين أو أشجار الطرفاء أو أى شجر آخر ينمو بالقرب من هذه الأمكنة المقدسة فى الوقود ، لأن المسلمين يعتقدون أنهم اذا استخدموا خشب الشجرة المقدسة فى الأعمال اليومية حلت عليهم لعنة الولى واستقرت عندهم •

ولهذا فان من المناظر الغريبة أن نرى فى هذه الأمكنة حيث يندر خشب الوقود ، أكواما من فروع الأشجار الجافة مطروحة على الأرض • ولا يجرؤ المسلمون على حرق هذه الفروع الا فى احتفال يقام للأولياء • أما الفلاحون المسيحيون ، فهم أقل دقة فى مراعاة ذلك لأنهم فى بعض الأحيان يستخدمون هذه الفروع المتساقطة فى وقود أفرانهم سرا •

وبناء على ذلك ، فان عبادة هذه الأماكن ذات المكانة السامية ، وبالمثل الأشجار الخضراء ، تلك العبادة التى حرمها الملوك العبريون وأنبياؤهم منذ آلاف السنين ، لا تزال تعيش بوضوح فى هذه الأماكن نفسها حتى اليوم • أى ان هؤلاء المزارعين لم يتغيروا الا قليلا ، رغم تعاقب الامبراطوريات على مر السنين ، ورغم قيام الثورات الروحية والاخلاقية التى غيرت من وجه عالمنا المتمدين •

ولنشر على سبيل المثال الى بعض هذه الأماكن المقدسة المحلية • فهناك فوق سلسلة من التلال تقع بالقرب من بحيرة فيالا فى شمال فلسطين ، توجد هضبة صغيرة تغطيها أيكة من أشجار البلوط النبيلة ، متخذة بحق شكل غيضة جليلة تثير فى النفس السحر الدينى العميق • وفى وسط تلك الأيكة يقف ضريح الولى أو الشيخ « عثمان حازورى »• ولا يختلف هذا الضريح عن أضرحة المسلمين العادية فى شىء ، ويحيط به حائط حجرى كالح • والى أسفل هذا الضريح مباشرة ، توجد نافورة صغيرة عند طرف أيكة تسمى باسم الولى • وهناك فوق جبل « أوشعا » ، وهو أعلى جبل من جبال جلعاد قبر شهير للنبى هوشع تظلله شجرة بلوط نبيلة دائمة الاخضرار • وهذا القبر بقدسه المسلمون والمسيحيون واليهود على السواء • فقد تعود الناس أن يحجوا الى هذا القبر ليقدموا الضحية ويقيموا الولائم ويؤدوا الصلاة • ويعد المنظر الذى يشرف عليه هذا الضريح من أجمل مناظر فلسطين • وربما فاق فى جماله ، وإن لم يكن فى مداه ، أشهر المناظر التى يشرف عليها جبل « نبو » حيث وقف موسى متأملا ، قبل موته مباشرة ، أرض الميعاد التى لم تطأها قدمه والتى كانت تسطع أضواؤها الأرجوانية وظلالها عبر وادى الأردن العميق •

ثم هناك ضريح « هابيل » الذى يقف فوق صخرة بجوار نهر « أبانا » فى لبنان وتحيط به أشجار البلوط الجليلة • وهذا الضريح بناء ذو قبة كسائر الأضرحة العادية واليه يحج المسلمون • وفى تل القاضى الذى كان يسمى فى الزمن القديم « وان » ، حيث تنبع

الروافد السفلى لنهر الأردن ، تكثر الأضرحة التى ترتبط بأشجار البلوط المقدسة • وتل القاضى هذا عبارة عن رابية طبيعية من الحجر الصخرى يبلغ ارتفاعها ثمانين قدما وعرضها نصف ميل • وتقع هذه الرابية فوق سهل فسيح وتكسوها مجموعة من أشجار الزيتون والبلوط التى تنحدر الى « بانياس » حيث توجد منابع نهر الأردن العليا • فموقع هذه الرابية فى الحقيقة رائع كل الروعة • وعلى الجانب الغربى من الرابية توجد أكمة كثيفة لا يسهل اختراقها ، وتنمو فيها أشجار البلوط والدفلى الذى تتغذى من منابع النهر السفلى • وهذه المنابع عبارة عن نافورة رائعة أشبه بحوض من المياه المزبدة ، ويقال انها أكبر نافورة لا فى سوريا وحدها بل فى العالم بأسره • وعلى الجانب الشرقى من الرابية يطل نبع آخر من منابع نهر الأردن • وتقف الى جانب هذا النبع ، وبجوار بعضها البعض شجرتا بلوط وتربنتين نبيلتان . وقد ظللتا قبور الأولياء المسلمين ، وتدلت من فروعهما الخرق ونفايات النذور •

وفى كثير من الأحيان نجد أشجار البلوط مزينة بخرق الفلاحين . وان لم تكن هذه الأشجار بجوار قبور الأولياء أو اضرحتهم • ففى « سلوان » التى تقع مكان شيلوح القديمة ، تنبت شجرة بلوط كريمة تسمى « بلوطة ابراهيم » • وهى احدى الشجيرات التى تسكنها الأرواح ، وتتمتع بشهرة ذائعة فى هذا المكان • وعلى هذه الشجرة يعلق الفلاحون المتطيرون الخرق على فروعها لاسترضاء الأرواح التى « تسكنها » . وفقا لاعتقاد الأهالى • « فاذا سرنا الى الوراء بعض الشىء فاننا نمر بمجموعة من أشجار البلوط الضخمة تتدلى من فروع شجرة منها خرق ذات أشكال وألوان متعددة • ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك : ما الهدف من تعليق هذه الزينة على فروع الأشجار ؟ ربما اعتقد الناس أن احدى هذه الشجرات تعد مأوى للأرواح الشريرة . ومن ثم كانت وظيفة هذه الخرق هى حماية الناس من شرور هذه الأرواح • ومثل هذه الأشجار التى يعتقد الناس فى أنها مأوى

للأرواح الشريرة تنتشر فى كل مكان فى فلسطين ، ويخشى السكان المتطيرون أن يناموا تحتها » • وربما تمكن المسافر من رؤية احدى هذه الشجرات المسكونة من ناحية بيروت القديمة ، وهى عبارة عن شجرة بلوط جليلة دائمة الخضرة وتنو على حافة الجبال الناتئة ، ويعلق الناس على فروع هذه الشجرة قطعا من ملابسهم على سبيل التقرب من هذه الشجرة ، حيث أنهم يعتقدون أن قوة ما تسكن الشجرة ولها القدرة على شفاء المرضى • وأحد جذور هذه الشجرة يرتفع فوق الأرض فى شكل قبو • وقد تعود الناس الذين يقاسون من مرض الروماتيزم أو الليمباجو ان يزحفوا من خلال هذا القبو حتى يشفوا من آلامهم • كما أن النساء الحوامل يزحفن كذلك من خلاله حتى تكون ولادتهن ميسرة • وفى اليوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر يرقص الرجال والنساء طوال الليل ، كل جنس على حدة بجانب الشجرة • ويبالغ الناس فى تقديس هذه الشجرة الى درجة أنه اذا تجرأ شاك وانتزع أحد فروعها ، فانه يصاب بشلل فى ذراعه •

وتوجد أضرحة الأولياء بين الأيكات فى بقاع مختلفة من وادى الأردن الأعلى ، وجميعها مخصص لتقديس « بنات يعقوب » • ويمكن رؤية احدى هذه الأضرحة من مدينة « صفد » وهو عبارة عن مسجد صغير وبداخله قبر • والناس يعتقدون أن فتيات عذراوات حسناوات يسكنه ، ومن ثم فقد تعودوا أن يشعلوا البخور عند مدخل هذا الضريح • وقد حاول ضابط شجاع • أصبح فيما بعد ضابطا مرموقا ، ثم اشترك فيما بعد فى الاشراف على شئون فلسطين ، حاول ان يبحث عن بنات يعقوب فى هذا القبر ، ولكنه لم يعثر لهن على أثر • وربما يشير هذا الربط بين بنات يعقوب وأشجار البلوط الى اعتقاد الناس فى أن لشجر البلوط حوريات أو آلهة تسكنه •

والكلمة التى تشير الى شجرة البلوط عند العبريين تشبه تلك الكلمة التى تسمى بها شجرة التربنتين كل التشابه • والاختلاف الوحيد بين اللفظتين يتمثل فى حروف العلة التى اضافها المخطوط

الماسورى الى النص فى العصور الوسطى • ولم يتفق الباحثون حول تحديد نوع الشجرة التى تشير اليها كل من هاتين الكلمتين ، ذلك لأن الشك يساورنا ، عندما تعترضنا احدى هاتين الكلمتين فى نص من نصوص العهد القديم ، فيما اذا كان المقصود بها شجرة البلوط أو شجرة التربنتين • وما تزال شجرة التربنتين مألوفة فى فلسطين ، وهى تنبت اما مفردة أو فى شكل مجموعة من الشجرات التى تختلط بأشجار البلوط ، ويطلق عليها الأهالى اسم شجرة البطم • وهذه الأشجار تنتشر فى جنوب وشرق فلسطين حيث أنها تنمو بصفة عامة فى بيئة أكثر دفئا وجفافا من البيئة التى تنمو فيها شجر البلوط • وتبدو شجرة التربنتين من على بعد شبيهة فى شكلها فى شكلها العام بشجرة البلوط • ومن النادر أن تنمو هذه الأشجار فى شكل كثيف أو فى شكل أكمات ، ولا توجد منها غابات على الاطلاق ، وانما تقف هذه الشجرة بمفردها فى شكل سحرى فى بعض الوهاد العارية أو على جانب التل حيث لا ترتفع فوقها فى الغابة أية شجرة أخرى • وعندما تذبل أوراقها فى بداية الشتاء ، تكون حينئذ شبيهة بشجرة البلوط الانجليزية التى تعرف بقصرها وجذعها ذى العقد الكثيرة ، كما أنها تشبهها فى أغصانها المنتشرة غير المتناسقة وفروعها القصيرة • وأوراق هذه الشجرة ذات شكل ريشى ، وأما وريقاتها فأكبر من أوراق شجر المستكاء • ويميل لونها الى الخضرة المشربة بالحمرة الداكنة ، ولكنه لا يصل الى دكنة أوراق شجر الخرنوب • ويندر ظهور هذه الأشجار كلما اتجهنا شمالا ، ومع ذلك فهى تعد الشجرة الوحيدة التى تخفف من رتابة خطوات الأغنام وهى تسير فى طريق منحدر لا نهائى يقودها الى موآب القديمة وأمون ، والى المنطقة التى تحيط بهيشبون • على اننا نصادف فى الوهاد القليلة التى تقع جنوب نهر اليبوق • كثيرا من هذه الأشجار التى تفوق فى حجمها تلك التى لا تزال تنمو غرب نهر الأردن » •

على أنه اذا حق لنا أن نحكم من خلال ما كتبه الرحالة فى أثناء

اشاراتهم المتعددة نسبيا الى هاتين الشجرتين . فاننا نتبين أن شجر التربنتين أقل انتشارا فى فلسطين من شجر البلوط • كما أن الناس فيما يبدو ، لا ينظرون اليه على الدوام نظرتهم الخرافية الى شجر البلوط • ومع ذلك ، فان تقديس شجرة التربنتين ليس نادرا • فقد ذكر « كانون تريسترام » أن كثيرا من أشجار التربنتين ما تزال حتى يومنا هذا موضع تقديس السكان المجاورين لها • كما أن الناس يرون أن أفضل مكان لدفن الشيخ البدوى ، هو أسفل شجرة تنمو بمفردها • ويورد أحد الرحالة الشرقيين ذكر شجرة « أم الخلقان » (١) التى تنمو عند مشارف الصحراء • وهم يعنون بها شجرة التربنتين التى تغطيها الخرق التى يقدمها الناس نذرا لها بدافع التطير أو بدافع ارتباطهم النفسى • وفى مكان آخر يتحدث هذا الكاتب نفسه عن شجرة التربنتين التى تنمو عند منبع نهر الأردن ، وقد تدلت من فروعها الخرق • وفى موآب تنمو أشجار البلوط بصفة عامة . والبلوط الدائم الخضرة ، وكذلك شجر التربنتين والخرنوب والزيتون أيا كان نوعه . اما مرتبطة بمكان مقدس أو تنمو بمفردها • ففى الحالة الأولى يبدو أنها لم تنم أصلا مستقلة عن المكان المقدس الذى تظلله ، كما أنها ليست لها وظيفة مستقلة عن تلك الوظيفة التى تربطها بالولى الذى يعد مصدر نموها وسبب نضرتها . والقائم على حمايتها • وأما الشجرة التى تنمو مفردة ، فلا تتمتع بمزايا المكان المقدس المشيد على بعد منها • وهذا النوع ينمو فرادى بجوار نبع أو فوق تل أو قمة جبل • ولقد مررت بشجرة من أشجار التربنتين ذات أوراق خضراء كثيفة تنمو بالقرب من « الطيبة » التى تقع فى الجنوب الغربى من « الكرك » غير بعيد من « الخنزيرة » . وقد غطت فروعها الخرق • وهذه الشجرة تعد موضع تقديس كبير من قبل عرب هذا الحى • وقد سألت عن قبر الولى الذى يرتبط بهذا المكان المقدس ، فأجابنى عربى كان قد فرغ من صلاته فقال : «ليس هنا مكان لقبر » • فلما سألته بعد ذلك « ولكن لماذا تأتى الى هذا المكان وتصلى عنده ؟ » أجاب على الفور :

---

(١) لعلها التى كان العرب يسمونها قديما « ذات الانواط » •

« لأن هنا فى هذا المكان يعيش رجل مقدس » • فقلت له : « وأين هو ؟ » فقال : « ان كل الظلال التى تحيط بالشجرة تعد مأوى له كما أنه يسكن الشجرة وفروعها وأوراقها » • ومرة أخرى تجد بين أطلال القلعة الرومانية « الرميلة » فى موآب ، شجرة خضراء من أشجار التربنتين • ولا يجرؤ أى عربى أن ينتزع فرعا من فروعها حتى لا تصيبه روح الولى التى تسكن الشجرة بأذى • فلما سألت عما اذا كان روح الولى يعيش فى الشجرة ، أجاب بعض العرب بأن روحه هى التى تكسب الشجرة قوتها ، كما أجاب البعض الآخر بأن روحه تعيش أسفلها • وهكذا نجد أن فكرتهم حول هذا الموضوع باهتة • ومن ثم فهم جميعا يتفقون حول اجابة واحدة وهى « الله أعلم » • وقد أخبرنا الأب « جوسن » الذى ندين له بهذه المعلومات ، أخبرنا عن شجرة التربنتين التى تنمو فى موآب فقال : « ان روح الولى التى يقدسها الناس فى هيئة تلك الشجرة تتخذ مكان سكناها من حول الشجرة ، فهى لا تستطيع أن تبرح هذا المكان ، وانما تعيش أسيرة فيه كما لو كانت تعيش فى سجن • فموقف هذا الولى يختلف عن سائر الأولياء الذين لا يرتبطون بمكان واحد وانما يتنقلون فى الأماكن التى يستدعى فيها عبادهم أرواحهم • فاذا نام البدوى بدافع الخشوع تحت شجرة من هذه الأشجار المقدسة ملتمسا الشفاء من روح الولى ، فان روح الولى كثيرا ما تظهر له فى رؤياه وتكلفه بعمل ما أو تحثه على تقديم الضحية ، وهو يلبى هذه الأوامر على الدوام •

وربما أدركنا من خلال هذه الأمثلة أن روح الولى المستكنة فى الشجرة ، ليست سوى روح الشجرة التى كان يعبدها الوثنيون فى العصور القديمة • وقد عاشت هذه العقيدة فى صورة واضحة عبر العصور الاسلامية والمسيحية • ويؤكد هذا رواية الأب « جوسن » عن تقديس العرب الخرافى لهذه الأشجار ، فقال : « ان المجموعة الرائعة من هذه الاشجار تلك التى تسمى مايسة وهى التى تقع فى جنوب كيراك وتتمتع بنفس الشهرة والتقديس اللذين تتمتع بهما

الأشجار الأخرى • وبالمثل تتمتع شجرة الدغل بشهرة وقوة سحرية كبيرة . وان كانت لا تظلل قبر أى ولى من الأولياء • ولم يذكر لى أى شخص على نحو مؤكد أن هناك وليا مدفونا عند تلك الشجرة وانما تملؤهم الشجرة نفسها بالورع على حد قولهم • والويل للعربى الذى يجرؤ على أن يقطع فرعا من فروعها بله ورقة من أوراقها . فسرعان ما تعاقبه روح الشجرة فى الحال وربما تسببت فى موته • وقد حدث أن ترك رجل بدوى كيسا ممتلئا بالشعير فى حماية الشجرة • فعثرت نعجتان من بين قطيع جار له كانتا قد ضلتا طريقهما على الشعير وأكلتاه • عند ذاك أرسلت روح الشجرة ذئبا فى اثرهما فأكل النعجتين فى مساء اليوم نفسه • فالشجرة نفسها هى التى تعاقب . وهى التى تمنح الخير • فالذى يلمس أوراقها يكتب له الشفاء من مرضه • ومن ثم فان البدوى لا ينسى عندما يمر بشجرة من أشجار ما يسة أو اشجار الدغل ، أن يمرر غصنا أخضر من أغصانها على وجهه وأذرعه . حتى يجنب نفسه المرض أو لكى يكتسب قوة جديدة • فعملية اللمس كافية لأن توصل اليهم بركة الشجرة . ومن المرضى من ينامون فى ظلها حتى يشفوا من أمراضهم ، كما أنهم يعلقون الخرق على فروعها بقصد التماس بركتها • ولهذا فانك ترى هذه الخرق فى أعداد كبيرة واشكال متنوعة • وفى اليوم الذى يعلق المريض خرقة على الشجرة يبرأ من مرضه ، لأن المرض يلتصق بالشجرة على حد تعبير الأهالى • على أن بعض هؤلاء الأهالى الذين يفكرون تفكيرا عقلانيا على نحو ما . يذكرون أن الخرق التى يعلقونها على الشجرة لا يقصد بها سوى تخليد ذكرى زيارتهم لتلك الشجرة • وفى بعض الأحيان يربط العربى بالشجرة التى يمر بها قطعة من القماش • أو قد يترك هراوته إما رمزا لتقديسه للشجرة أو لأنه يهدف الى ضمان بركة الشجرة له فى المستقبل • وليس من غير المألوف فى الواقع أن تقابل بعض العرب وهم يربطون قطعة من القماش الأخضر أو الأحمر (ومن النادر أن يكون لونها أبيض ، أما اللون الأسود فلا يستخدم على الاطلاق) بأحد فروع الشجرة المقدسة ، لكى يضمن لطفل محبب لديه الصحة

الوافرة • وفضلا عن ذلك فاننى عثرت عند شجر « مايسة » عدة خصلات من الشعر مربوطة فى فرع من فروع شجرة منها • وقد فسر لى مرافقى هذه الظاهرة على النحو التالى فقال : « لقد زارت سيدة مريضة هذه الشجرة ، فقصت شعرها وربطته بالشجرة علامة على تقديسها لها » •

وتعد شجرة التربنتين الشجرة الرئيسية فى بيئة موآب الدافئة الجافة ، بينما تزدهر أشجار البلوط فى أحياء جلعود والجليل التى تقع فى الشمال حيث يكون الجو أكثر برودة وأكثر أمطارا • ومن الطبيعى بناء على ذلك أن تكون شجرة التربنتين هى الشجرة المقدسة أساسا فى الجنوب ، وأن تكون شجرة البلوط هى الشجرة المقدسة أساسا فى الشمال • ولكنه يبدو ، اذا حكمنا من خلال روايات الرحالة ، أن الفلسطينيين بشكل عام يألفون أشجار البلوط • ومن ثم كانت هى الشجرة التى يقدسها الفلاحون أكثر من غيرها من الأشجار • وبناء على ذلك فانه يحق لنا أن ننتهى ، اذا وضعنا فى اعتبارنا مدى تشبث الناس بأشكال المعتقدات الخرافية ، وتعلقهم بها عبر العصور ، ان سكان هذا البلد الوثنيين كانوا يقدسون شجرة البلوط فى العصور القديمة أكثر من تقديسهم لأية شجرة أخرى • وبناء على ذلك فاننا اذا ساورنا الشك فيما اذا كانت الكلمة العبرية فى العهد القديم تشير الى شجرة البلوط أو الى شجرة التربنتين ، فانه ينبغى علينا أن نرجح أنها تشير الى شجرة البلوط • ويؤكد هذا أن المترجمين الاغريق القدماء ، وكذلك القديس « جيروم » كانوا ينقلون الكلمة التى يشك فى اشارتها فى العهد القديم الى شجرة البلوط أو الى شجرة التربنتين، الى الكلمة المقابلة لها فى لغتهم والتى تعنى شجرة البلوط لا شجرة التربنتين • وقد فعل منقحو الترجمة الانجليزية المعتمدة هذا كذلك ، باستثناء فقرتين ترجم فيها المنقحون كلمة « آلون » العبرية الى كلمة Oak الانجليزية أى البلوط ؛ كما ترجموا كلمة « آله » العبرية الى كلمة Terebinth الانجليزية أى التربنتين • أما خلاف

هذا فقد كانوا يترجمون كلمة « آله » العبرية الى كلمة Oak على الدوام . ثم ذكروا فى الهامش أن كلمة Terebinth هى كلمة أخرى تقابل « آله » العبرية (١) .

ومما يؤكد أن الوثنيين العبريين القدماء كانوا يقدسون شجرة البلوط ، تلك الاشارات التى أشار اليها الأنبياء فيما يختص بهذه العقيدة الخرافية . فالنبى هوشع يقول : « يذبحون على رؤوس الجبال ويبخرون على التلال تحت البلوط واللبنى والبطم لأن ظلها حسن . لذلك نزنى بناتكم وتفسق كنائكم . لا أعاقب بناتكم لأنهن يزنين ولا كنائكم لأنهن يفسقن لأنهم يعتزلون مع الزانيات ويذبحون مع الناذرات الزنى » (٢) .

فالنبى هنا يشير الى عادة البغاء التى كا يسبغ عليها الصفة الدينية لممارستها فى ظل الأشجار المقدسة . ويقول النبى « حزقيال » مشيرا الى تلك الأكمات المقدسة التى يقدسها قومه الكفرة : « فتعلمون أنى أنا الرب اذا كانت قتلاهم وسط أصنامهم حول مذابحهم على كل أكمة عالية وفى رؤوس كل الجبال وتحت كل شجرة خضراء وتحت كل بلوطة غبيراء الموضع الذى قربوا فيه رائحة سرور لكل أصنامهم (٣) . ومرة أخرى يتحدث النبى أشعياء عن الآثمين الذين هجروا الرب فيقول : « لأنهم يخجلون من أشجار البطم التى اشتهيتموها وتخزون من الجنات التى اخترتموها ، لأنكم تصيرون

---

(١) الشجرة التى يرد ذكرها بصفة عامة فى الترجمة العربية للعهد القديم هى شجرة البلوط .
(انظر على سبيل المثال . سفر الخروج الاصحاح الثانى عشر آيه ٦ . والاصحاح الثالث عشر آية ١٨ . والاصحاح الرابع عشر آية ١٣ . وسفر التثنية ، الاصحا الحادى عشر آية ٣٠) .
وقد يرد اسم الشجرة الثانية تحت اسم البطمة (انظر سفر القضاه الاصحاح السادس آية ١١ . وسفر اشعياء الاصحاح السادس آية ١٣) (المترجمة).
(٢) سفر هوشع الاصحاح الرابع آية ١٣ وما بعدها .
(٣) سفر حزقيال الاصحاح السادس من آية ١٣ .

كبطمة قد ذبل ورقها وكجنة ليس لها ماء » . ثم يقول مؤلف النبؤة الأخيرة الذى يذكر على أنه النبى أشعياء وذلك فى معرض حديثه عن انتشار الوثنية فى عصره : « أما أنتم أولاد المعصية نسل الكذب المتوقدون الى الأصنام تحت كل شجرة خضراء . القاتلون الأودية تحت شقوق المعاقل » (١) . والضحية التى يشار اليها هنا هى بدون شك التضحية بالأولاد الى الاله « ملك » . ويشير النبى أرمياء الى هذه المعتقدات موجها حديثه فى نغمة انفعالية الى بنى اسرائيل الآثمين فيقول : « أيضا فى أذيالك وجد دم نفوس المساكين الأزكياء . لا بالنقب وجدته . بل على كل هذه » (٢) . وهنا يبدو أن دماء الأطفال الذين كانوا يقدمون ضحية . كانت تلطخ بها شجرة البلوط المقدسة . أو أنها كانت تقدم اليها على نحو آخر ما . وينبغى أن نذكر فى هذا المجال أن الضحايا كانوا يذبحون قبل أن تحرق أجسادهم فى النار حتى يمكن استخدام دمائهم قربانا للأشجار أو طلاء لها . فقبيلة « جالا » التى تسكن فى شرق افريقيا . تسكب دماء حيواناتهم عند سفح أشجارهم المقدسة حتى لاتذبل أشجارهم . وفى بعض الأحيان يطلون جذعها وفروعها بالدم والزبد واللبن . وتقدس قبيلة « الماساى » فى شرق افريقيا نوعا من نبات التين الطفيلى الذى يلتف تدريجيا حول جذع الشجرة الرئيسية فى شكل جذور وفروع لولوبية بيضاء براقة . وهذه الأشجار يتقرب اليها الماسيون عن طريق ذبح نعجة . وسكب دمائها عند جذورها . وعندما يقدم النونومايون سكان السودان الفرنسى الضحية للأرض حتى تمنحهم المحصول الطيب . فانهم يسكبون دماء الدجاج المذبوح على شجر التمر هندى وغيره من الأشجار المقدسة . وتقدم قبيلة « البامبار » التى تسكن أعالى النيجر . الشياة والنعاج والدجاج ضحية لأشجار البامبو أو أية أشجار مقدسة أخرى . كما يسكبون الدماء فوق جذوع تلك الأشجار فى الوقت الذى يصلون فيه للأرواح التى تسكن الشجرة . وعلى هذا

---

(١) سفر اشعياه ، الاصحاح السابع والخمسين آية ٤ ، ٥).
(٢) سفر ارمياء (الاصحاح الثانى آية ٣٤) .

النحو كان « البرويسيون » يسكبون دماء ضحيتهم فوق شجره البلوط التى تنمو عند « روموت » • ويقول « لوكان » ان كل شجرة فى أيكة « درويديكال » المقدسة فى مرسيليا كانت تغسل بدماء الشخص الذى يقتل ضحية لها •

ولكن اذا كان أنبياء بنى اسرائيل فى العصور المتأخرة قد أشاروا الى عبادة أشجار البلوط أو التربنتين بوصفها طقسا من طقوس الوثنية. فهناك شواهد عديدة أخرى تشير الى أن أشجار البلوط أو التربنتين المقدسة كانت تلعب دورا رئيسيا فى العقيدة الشعبية فى العصور السابقة على ذلك عند بنى اسرائيل . بل انها تشير الى أن يهوه نفسه كان مرتبطا بتقديس هذه الأشجار كل الارتباط • وعلى كل . فانه يجدر بنا أن نشير الى ان الرب أو ملائكته كثيرا ما ظهروا لأحد البطارقة القدامى أو للأبطال عند شجرة البلوط أو عند شجرة من أشجار التربنتين • فقد كان أول ظهور يهوة لابراهيم عند شجرة بلوط أو عند شجرة من أشجار التربنتين . كانت تنمو فى « شكيم » وتعد مكانا للنبؤة • وهناك ابتنى ابراهيم معبدا (١) • ومرة أخرى نقرأ ان ابراهيم كان يسكن الى جانب شجرة بلوط أو شجرة تربنتين كانت تنمو فى ممرا فى حبرون (٢) • وهناك ابتنى كذلك معبدا للرب • وهناك فى هذا المكان بجانب شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو فى « ممرا » « ظهر له الرب فى شكل ثلاثة رجال بينما كان يجلس فى خيمته وقت الظهيرة (٣) • وهناك فى ظل الأشجار أكل الرب من

---

(١) واجتاز ابرام فى الأرض الى مكان شكيم الى بلوطة مورة . وكان الكنعانيون حينئذ فى الارض » . (سفر التكوين الاصحاح الثانى عشر آية ٦) .

(٢) « فنقل ابرام خيامه واتى واقام عند بلوطات ممرا التى فى حبرون . بنى هناك مذبحا للرب » .
(سفر التكوين الاصحاح الثالث عشر آية ١٨) .

(٣) « وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار . فرفع عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفون لديه » .
(سفر التكوين الاصحاح الثامن عشر آية ١ ، ٢) .

اللحم وشرب من اللبن واللبن الرائب الذى قدمه الشيخ الجليل له • وكذلك ظهر ملاك الرب « لجدعون » وجلس تحت شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو فى « عفره » ، وأحضر له « جدعون » الذى كان منشغلا بدرب القمح ، لحم جدى وحساءه ، كما أحضر له فطيرا غير مختمر ليأكل تحت شجرة بلوط • ولكن الملاك ، بدلا من أن يأكل الطعام ، طلب من جدعون أن يضـــع اللحم والفطير على صخرة وأن يسكب الحساء • ثم أشعل نارا من الصخر بلمسة من عصاه ، فأتت على اللحم والفطير • ثم اختفى الضيف السماوى بعد ذلك • أو ربما اختفى ساكن الشجرة • وابتنى جدعون اثر ذلك معبدا عند هذا المكان كما فعل ابراهيم من قبل (١) •

وقد كانت هناك شجرة بلوط أو تربنتين تعد مكانا للنبؤة بالقرب من شكيم ، وكانت هنـــاك شجرة أخرى بالقرب من ممـــرات • على أننا لانعرف ما اذا كانت هذه الشجرة هى بعينها التى ظهر عنـــدها الرب لابراهيم • ويبدو أن اسم الشجرة وهو « شجرة العرافين » ، يشير الى أن مجموعة السحرة أو الكهنة ، كما نميل الى أن نسميهم على هذا النحو ، التى كانت قد استخدمت لها مكانا عند الشجرة المقدسة ، لكى يفسروا لطالبى النبؤات حفيف الأشجار فى الهواء وهديل حمام الغاب بين فروع الأشجار ، وغير ذلك من سائر أشكال النبوءة التـــى تكشف عنها روح شجرة البلوط لعبادها • وما تزال وهـــدة شيخيم الجميلة التى تحتضن أشجار الزيتون وحدائق البـــرتقال وأشـــجار النخيل ، وترويها الجداول ذات المياه الوفيرة ، لا تزال تعد أغنى بقاع فلسطين • كما أنه يبدو أنهـــا كانت فى الزمن القـــديم مـــكانا لعبادة الأشجار • ومهما يكن من أمر فاننا نصادف مرارا فى معرض تاريخها ، ذكر أشجار البلوط أو التربنتين التى يبدو من سياق الكلام أنها كانت مقدسة ، فقد أخذ يعقوب الأصنام أو « ربات البيت الغريبة » ، كما أخذ الأقراط التى تستخدم فيما يبدو — بوصفها تعاويذ ، ودفن كل

---

(١) سفر القضاه ، الاصحاح السادس من ١١ — ٢٤) .

ذلك تحت شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو فى شكيم (١) • ويذكر « أو يستاسيوس » أن هذه الشجرة كان شجرة تربنتين وأن سكان المناطق المجاورة لها كانوا يقدسونها حتى عصره • وكان قد شيد معبدا بجانب هذه الشجرة وكان الناس يقدمون فيه التضحيات • وقد نصب النبى يوشع تحت شجرة البلوط التى كانت تنبت عند المكان المقدس للرب فى شكيم ، حجرا ، ليكون شاهدا على قومه عندما قال لهم : « ان هذا الحجر يكون شاهدا علينا لأنه قد سمع كل كلام الرب الذى كلمنا به ، فيكون شاهدا عليكم لئلا تجحدوا الهكم » (٢) • كما نصب أهالى « شكيم » « أبيمالك » ملكا عند شجرة بلوط فى شكيم ، اذ كانوا يعتقدون أن شجرة البلوط ترتبط بالملك برابطة ما ، حيث أننا نقرأ فى مكان آخر عن شجرة كانت تسمى « بلوطة الملك » ، وكانت تنمو عند حدود موطن سبط بنى آشر • وقد دفنت عظام الملك شاءول وعظام أولاده وفقا لرواية من الروايات تحت شجرة بلوط أو تربنتين عند جبل جلبوع • وعندما توفيت « دبيورا » وصيفة « رفقة » ، دفنت تحت شجرة بلوط فى « بيت ايل » ، من ثم سميت هذه الشجرة « شجرة البلوط الباكية » • ومن المحتمل أن شجرة البلوط الباكية كانت هى بعينها الشجرة التى قابل عندها شاءول ، بناء على تعليمات صموئيل النبى ، وقبل أن يتوج بمدة قصيرة ، ثلاثة رجال كانوا ذاهبين لتقديم الضحية للرب عند « بيت ايل » ، فحيوه وقدموا له رغيفين من أرغفتهم • وهذه التحية التى حيا بها الرجال الثلاثة ملك المستقبل عند شجرة البلوط ، تذكرنا بظهور الرب لابراهيم فى هيئة ثلاثة رجال عند بلوطة « ممرا » • وربما أشارت تحية الرجال عند شجرة البلوط فى الرواية الأصلية لهذه الحكاية الى مغزى أبعد من ذلك الذى تكشف عنه الرواية المتأخرة لها • فاذا ربطنا حادثة مقابلة

---

(١) فأعطوا كل الالهة الغريبة التى فى ايديهم والاقراط التى فى آذانهم فطمرها يعقوب تحت البطمة التى عند شكيم » .
(سفر التكوين الاصحاح الخامس والثلاثون آية ٤) .
(٢) سفر يشوع الاصحاح الرابع والعشرون آية ٢٧ .

الرجال الثلاثة لشاءول قبل تتوجه ملكا ، بحادثة تتويج « أبيمالك » عند شجرة البلوط ، فاننا نستدل من ذلك على أن الملك شاءول كان ينتظر من شجرة البلوط التى ربما ظهرت له فى شكل ثلاثى أن تظهر له لتباركه فى حفل تتويجه • وبناء على ذلك ، وفى ضوء هذا التفسير فان دفن عظام شاءول تحت شجرة البلوط يتطلب ، فيما يبدو ، تفسيرا جديدا • فالملك الذى سبق أن باركته روح الشجرة فى بداية حكمه ، كان جديرا بأن ينام نومته الأخيرة تحت شجرة البلوط •

على أن أكثر الشجرات شهرة فى فلسطين القديمة وأكثرها ألفة بين الناس كانت فيما يبدو هى شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو عند « ممرا » ، لأن الرب ظهر عندها لابراهيم جد بنى اسرائيل الأكبر فى هيئة ثلاثة رجال ، فهل كانت هذه الشجرة شجرة بلوط أم شجرة تربنتين ؟ هنا تختلف الشواهد القديمة ، ولكنها ترجح فى معظمها انها كانت شجرة تربنتين • فقد أخبرنا « يوسفوس » أن كثيرا من الآثار التى كانت فى عهد ابراهيم والتى كانت مبنية بعناية من الرخام الجميل ، كانت تقع فى « حبرون » ، وعلى بعد مائتى ياردة من البلد كانت تنمو شجرة تربنتين ضخمة للغاية قيل انها قد نبتت فى هذا المكان منذ بدء الخليقة • ويمكننا ان نفترض ان هذه الشجرة على الرغم من عدم تصريح « جوزيفوس » بذلك ، هى بعينها التى قيل ان ابراهيم قابل عندها الملائكة وتحدث معهم • وقد أكد « أريبوس » أن هذه الشجرة كانت موجودة حتى عصره ، أى حتى مطلع القرن الرابع الميلادى ، وان المكان الذى تنمو فيه كان يقدسه سكان الأماكن المجاورة • وقد صور الضيوف الثلاثة الغامضين الذين أخذوا حصتهم مما قدم لهم ابراهيم تحت الشجرة تصويرا مقدسا ، وأوسط هؤلاء الثلاثة ، يفوق الآخرين وقارا فى هذا التصوير وقد تحدث عنه الشيخ الجليل قائلا : « انه الهنا بعينه • وهو منقذنا الذى عزف عن تقديسه حتى من عرفه » • وقد كان السكان المجاورين لهذا المكان يقدسون الملائكة الثلاث • ويذكرنا هؤلاء لشدة دهشتنا بالآلهة الثلاثة الذين

كانت تقدس صورهم عند شجرة البلوط المقدسة التى كانت تنمو فى بلدة « روموفى » ، المركز الدينى للبروسيين الوثنيين • وربما كان الناس يعتقدون ان الاله الشجرة الذى كان موجودا فى كل من « حبرون » و « روموفى » ، قد تمثل لهم لسبب ما فى شكل ثلاثة من الرجال • وقد كتب حاج من « بوردو » وهو مؤلف أقدم « دليل المسافرين فى أورشليم » ، عام ٣٣٣ بعد الميلاد يقول ان شجرة التربنتين كانت تنمو على بعد ميلين من حبرون ، « وأن قسطنطين أمر ببناء كنيسة جميلة هناك • على أننا نستدل من طريقة كتابته على أن كلمة « التربنتين » لم تكن سوى اسم لمكان ، أما الشجرة نفسها فلم يكن لها وجود فى ذلك الوقت ، ذلك أن « جيروم » الذى كتب مؤلفاته فى نهاية القرن الرابع الميلادى ، قد ذكر أن هذه الشجرة لم يكن لها وجود فى هذا المكان • فشجرة البلوط التى تنسب لابراهيم أو الى بلدة « ممرا » ، وفقا لقوله ، كانت تنمو حتى عصر قسطنطين ، وأن مكان هذه الشجرة كان يقدسه الناس المجاورين لها بناء على ما توهمه الناس من أن ابراهيم قد تقابل فى هذا المكان مع ملائكة الرب » •

وعندما قرر قسطنطين ان يبنى كنيسة عند الشجرة المقدسة ، أفصح عن غرضه فى خطاب أرسله الى « أوزيبوس » أسقف قيسارية ، الذى احتفظ لحسن الحظ فى زمنه بنسخة من خطاب الامبراطور • وأشير الآن الى الفقرة الخاصة بالشجرة المقدسة • فقد قال قسطنطين : « ان المكان الذى يسمى « عند بلوطة ممرا » الذى اتخذ ابراهيم عنده مسكنا له كما نعلم ، قد دنسه بعض الناس المتطيرين بطرق شتى • فقد قيل ان أكثر الأصنام دلالة على الكفر قد وضعت بهذا المكان ، وأن معبدا شيد بالقرب منه حيث كان الناس يقدمون على الدوام التضحيات الدنسة • واذا كان هذا يبدو غريبا فى عصرنا ، وغير جدير بهذا المكان المقدس ، فاننى استسمحكم بأن أخبركم أننى قد كتبت الى صديقى الكونت « أكاكيوس » الموقر ،

آمره بأن يحرق دون ما تلكؤ كل الأصنام التى توجد عند هذا المكان ، وأن يهدم المعبد وأن يعاقب كل من يجرؤ بعد ذلك على اقتراف اثم يسىء الى قدسية هذا المكان • وقد أمرنا بأن يزين المكان بمبان كنسية فحسب حتى يصبح مكان اجتماع لائق بالقديسيين » •

ومن هذا الخطاب يتضح ان الامبراطور يتحدث عن شجرة البلوط المقدسة لا عن شجرة التربنتين • وبالمثل فقد عرفها المؤرخان الكنيسان « سقراطيس » و « سوزومينوس » ، بأنها شجرة بلوط • على اننا لا نعتد كثيرا بشهادة هؤلاء حيث أن الثلاثة قد اقتفوا أثر مخطوط « سبتراجنت » الذى أشار الى الشجرة على أنها شجرة بلوط وليست شجرة تربنتين • ومن المحتمل أنه من قبيل الاختلاف مع المرجع « سبتراجنت » أن أشار « ايوزيبوس » الى « بلوطة ابراهيم » فى الفقرة نفسها التى ذكر فيها أن شجرة التربنتين تعيش فى عصره • وقد ترك لنا المؤرخ الكنسى « زوسوميوس » وصفا لافتا له قيمته عن الاحتفال الذى كان يعتد كل ضيف عند الشجرة المقدسة منذ زمن قسطنطين وربما قبل ذلك • فقد قال :

« ومن الواجب على الآن ان أذكر الأمر الذى أصدره الأمبراطور قسطنطين الخاص بما سمى « بلوطة ممرا » ، فهذا المكان الذى يطلق عليه الآن اسم « التربنتين » يقع شمال جبرون بما يقرب من ستة أميال ، ويبعد عن أورشليم بما يقرب من ثلاثين ميلا • وانها لقصة حقيقية تلك التى روت عن ظهور « ابن الرب » لابراهيم بصحبة الملائكة الذين أرسلوا لعقاب شعب سودوم ، وإنبائه ابراهيم بميلاد ابنه • وما زال الناس المجاورون لهذا المكان يقيمون فيه احتفالا فى كل صيف كما يقيمه السكان الذين يعيشون فى مناطق نائية فى فلسطين وكذلك الفينيقيون والعرب • كما يجتمع كثير من الناس فى هذا المكان للتجارة فيبيعون ويشترون • حيث أنهم يختزنون بضائعهم لحين قدوم هذا الاحتفال • أما اليهود فهم يحيون هذا الاحتفال لأنهم يخلدون

فى زهو ذكرى جدهم الأكبر ابراهيم • وأما الاغريق فهم يحيـون هذا الاحتفال بدعوى زيارتهم للملائكة • وأما المسيحيون فهم يفعلون ذلك كذلك لأنه قـد ظهر للرجل التقى فى هـذا المـكان وهذا الزمان « الواحد » الذى ولد فيما بعد من العذراء ليخلص البشرية • فـكل طائفة تقدس اذن هذا المكان وفقا لعقيدتها . فالبعض يصـلى لرب العباد جميعا ، والبعض يبتهل الى الملائـكة ويسكب الخمر أو يشعل البخور أو يقدم ثورا أو نعجة أو ثماة أو ديكا ضحية . ذلك أن كل رجل يظل يغذى حيوانا طوال العام وينذر أن يقدمه باسمه واسم أسرته ضحية لهذا المـكان فى وقت الاحتفال • ويمتنع الرجال عن مخالطـة النساء إما بدافع الاحترام لهذا المكان أو خوفا من أن يلحق بهم شر نتيجة غضب الرب • هذا على الرغم من أن النسـاء يتجملن ويتزين خصيصـا لهذا الاحتفال ويظهرن سافرات فى هذا الجمع من الناس • ومع ذلك . لايسلك رجل منهم مسـلكا شـهوانيا على الرغم من أن الجنسين يعسكران معا وينامان معا فى مكان واحد • والناس يضربون خيامهم فى هذا المكان حيث أن الأرض ممهدة وخالية من الزرع وتخلو من كل مبنى فيما عدا ابراهيم القديم الذى يقع عند شجرة البـلوط والبئر الذى شيده • وفى أثناء هذا الاحتفال لا يستمد أحد المياه من هذا البئر وانما يشعل بعضهم الشموع أو يسكب الخمر أو يلقى فيـه الكعك والنقود والروائح والبخور . وذلك وفقا للعادة الاغريقية • ومن ثم فربما كان الامتناع عن الشرب من مياه البئر فى ذلك الوقـت يرجع الى أن مياهها تكون غير ملائمة للشرب بعد أن يرمى فيها بهذه الأشياء • وقد أخبرت والدة زوجة قسطنطين التى كانت قد زارت هذا المـكان وفاء لنذر . أخبرته بشعائر هذه الاحتفالات التى كانـت تقام وفقا للطقوس الاغريقية ••

ومن هنا يتضح أن عادة تقديس الشجرة المقدسة والبئر المقدس فى حبرون ظلت مسيطرة عـلى عقول النـاس حتى اعتـرف بالدين المسيحى دينا رسميا للدولة الرومانية • ويبدو أن هذا السوق الذى

كان يقام مع الاحتفال الصيفى كان يجتذب التجار من كثير من بقاع العالم السامى ، كما أنه قد لعب دورا حزينا فى تاريخ اليهود ، لأن عددا كبيرا من أسرهم ، رجالا ونساء وأطفالا قد بيعوا عبيدا فى هذا السوق بعد أن أخضعهم الرومانيون اثر تمردهم الأخير عام ١١٩ بعد الميلاد • وبهذا انتهت الأمة اليهودية فى المكان بعينه الذى قيل عنه فى تراثهم أنه قد أسسه ابراهيم عند شجرة بلوط أو تربنتين كانت تنمو عند ممرا » • ولا تزال هذه الشجرة واقفة ، هى أو بديلتها فى حقل يكثر فيه العشب ويقع على بعد ميل ونصف ميل غرب حبرون • وهذه الشجرة عتيقة وجميلة ودائمة الاخضرار ، وهى تعد من أكرم الأشجار التى تنمو فى جنوب فلسطين • ويبلغ محيط جذعها ثلاثة وعشرين قدما ، كما يبلغ امتداد فروعها حوالى تسعين قدما • وبهذا تكون شجرة البلوط قد فازت فى منافستها على شجرة التربنتين فى هذا المكان المقدس عند ممرا ؛ اذ ليس هناك شجرة تربنتين واحدة ضخمة تنمو فى « جبرون » •